مواسم الأدب

للأستاذ كرم ملحم كرم

يوم لنا ويوم علينا . هذا حال الأدب ؛ فلا بد فيه من يقظة وهجمة . والأدب وليد الحس، والحس تتفق له حيناً وتبات يصاول بها الفلك ، ويدهمه حيناً سكون تغلب عليه فيه نومة . . . نجمة الموت أهنأها !

فكأن للأدب مواسم يشع فيها ويكشف عن جبينه وقد دانت له منلقات الوحي، وتفتحت عليه سوى الإلهام . كأنه يتقلب بين سعود ونحوس ؛ فيضيء نجمة وقادة ليخبو كصباح عطش إلى الزيت . فما إن تعصف به الغاشية حتى تذهب باليانع من أطايبه ، والنامي من أغصانه ؛ ويحييه غيث ندي فيتلألأ بسخاء ، ويزكو بسماح ، ويملو أبداً فيطول عين الشمس وينفذ إليها ساطعاً منها على الدنيا ، مالئاً كل زاوية وجاً وسنى !

ولقد بحثت عن الأدب فما اهتديت إليه بغير أبواب الملوك ، وإنه ليجالس الملوك ؛ يهشون له فيبش لهم ، ويصدون عنه فيغمز بهم . فإن يهبوا له العطايا ينفحهم ببدائعه ، وإن يمسكوها عنه وينتضوا في مقاتلته سيفاً حديداً يناهضهم بلسان أمضى من القاطع الفتاك

وما هي عطاياهم تجاه بدائعه ؟... عطاياهم تذوب ونفائسه تبقى؛ عطاياهم تذوب لا تثبت على الأيام ، على حين أن نواجبه تفل من عزم الأبد ، ولولاه ، لولا ما يخلع عليهم من مديح ، لتناست الأجيال المتعاقبة معظمهم ؛ وحتى أهاجيه تمد آجالهم ، فيصونهم الخلود ، لكون الأدب تغنى بآتيهم، أو أحسن النيل منهم وأبى على الزمن أن يبيد آيات سمت عن التلاشي والاضمحلال

بيد أن فضل الأدب على الملوك لا يمحو فضل الملوك على الأدب . فما بلغ الأدب أشده ، بل هو لم يتنفس وتختلج فيه الحياة المطمئنة الوضيئة، لولا أن هؤلاء الملوك ينذوته بعطاياهم، وتوحي به مجالي الأبهة والجلال في معيشتهم وسكناهم . فالهباءة والندى من باعثات الوحي وحوافز البيان . فلا بد لمن تكمن فيه آيات البلاغة أن يحسسهما ويبوح بما يجيش في نفسه من إعجاب وإجلال ...

فالتاج والصولجان ينطويان على عظمة ملموسة تفتق العاطفة على جودها ، وتسلل من أعماق القلوب الكلام المجنح والمنطق الحلال . فيفيض الأديب الموهوب بالبيان الصافي ، وينتزع المعاني من مخابئها ؛ بل هو يغوص عليها في مظانها يجلو بها العقد النظيم ويدفعه أنيق الصياغة ، ساطع الجبين !

وقد تندفع إليه هذه المعاني عفواً ، دون ما كد ذهن ولا إجهاد نفس . فالعظمة المنبسطة أمامه بسلطانها وبهائها تهمت في لبه القوة على توليد كل معنى جليل ليعادل بنسج بيانه المشهد السامي المنعة ، المحفوف بالنعمة ، المتوهج في عينيه

والملك الضليل نفسه لم يبلغ مكانته الشامخة في أدب الضاد لو لم يعش في أحضان ملوك ، ويستنشق في بلاط أبيه شميم العزة ، ويلمس بيديه نعامة السلطان . فأقبل إلى ساحة الأدب مثقلاً بفخفخة الملوك ، وكان أدبه صدى هذه الفخفخة البعيدة اللمعان المجلببة بالنعمى ، اللينة الجانب ، المكينة البنيان

وامرؤ القيس ، الملك الضليل ، في طليعة موكب الأدباء في لغة الضاد . فما لقي الأدب بيانه المنثور في سوى بدائع ذلك الفتى وقد جمحت به العاطفة فانطلقت من كبده حافلة بالقول الشهي والصوغ المحكم الأداء . وتوالت من بعده السلسلة حلقة حلقة ، وكلها تنم عن طيب أصحاب الجلالة ، أو من يستوى في معاقلهم من أصحاب الجاه الوسيع ، والظل المأنوس ؟

ومن أنطق بالأدب المصفى المقدس ، وابن أخته طرفة بن العبد ، وابن كلثوم ، وابن حلزة اليشكري سوى الملك عمرو بن هند ؟ . . . فإن هذه القافلة من أدباء العهد الجاهلي مدينة لابن هند في الإبداع في النظم والإنشاد . وأنى لابن كلثوم أن يسمعنا معلقته التياهة :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

لولا عمرو بن هند الملك الأثيل المجد الأبلج المنتمي ؟

وهذه الشملة المتأججة في منظوم النابغة الذبياني ، أين كنا نجدها لولا النعمان بن المنذر ، أبو قابوس ؟ ... فالنابغة لم يسحب في أبياته وقوافيه ذيل الدل والإعجاب لولا هيبة السلطان وعاصمه الجليل :

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

ومثله لبيد . فالنعمان مهد له السبيل إلى النظم والإجادة وهو في سن تقصر عن البلوغ . فطعن في حضرة صاحب السلطان على الربيع بن زياد العبسي طعنات دامية أزاله بها عن مكانته السامقة وقد صاح بالنعمان والربيع يؤاكله :

مهلاً ، أبيت اللعن ، لا تأكل معه !

ولن ننسى ابن أبي سُلمى ، زهيراً ، صاحب الحوليات القائل :

سئمت تكاليف الحياة ، ومن يعش
ثمانين حولاً ، لا أبالك يسأم

فإن عليه لهرم بن سنان يداً في إفاضة النظم وفي تذليل المعاني الحسان :

تراه إذا ما جئته متهللاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله

والأعشى . ماذا نقول في الأعشى المتكسب ، جوّاب الآفاق ؟ أما أقام بباب الأسود ، أخي النعمان ، يغالي في المدح ويسأل العطاء ـ والمُسي تفتح الفا ؟

هذا في العهد الجاهلي . ولقد كان العهد الإسلامي في مستهله أمضى حافز على النظم والإبداع . فالدعوة الإسلامية بحاجة إلى من ينادي بها ، ويذيع فضائلها ، والخصوم يتألبون عليها . فانتصب للمناضلة عنها حسان بن ثابت الأنصاري . واعتمده النبي العربي في الكفاح . وأسمعنا كعب يتيمته :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبولُ ...

وطاف الحطيئة بالأبواب يستندي ويستجدي . ومن أمسك عند يده هدده بقطعات لسانه ؛ فأنجده في الجاهلية أبو سفيان ، وأجزل له في الإسلام العطاء عمر بن الخطاب ، فابتاع منه لسانه بثلاثة آلاف درهم لئلا يطلقه في سب المسلمين لا يخشى ، ولا يتحامى فحش القول والتهشيم

ونبض العهد الأموي بالحياة ، فإذا الأخطل يبدو ويقبل في أثره الفرزدق وجرير . ثلاثة معاول للهدم ودك المعاقل المشمخرة . وبسط معاوية يده في استمالة الأدباء فكان للأدب في عهده موسم خصب وسوق نافقة . فكل من أحس في نفسه ميلاً إلى الأدب تبع ميله وماشى هواه . فالعهد بات عهد نظم وخطابة وإنشاء ، يمدح الأدباء معاوية ويزيد ابنه فتتقلى أيديهم بالعطايا النفيسة ، ويضم الخلفاء ويكسب الأدب !

ولم يعدم هؤلاء الأدباء ساعات لهو يبيحون فيها للنفس سجيتها وينطقون بما ينتفض في قلوبهم من عاطفة مشبوبة وهوى دفين . فيحدثنا الأخطل عن حبه للكأس واستمالته بابنة العنقود وينسب جرير بفاتنته أم عمرو وقد سلبته صفاء القلب ؛ وتسبيه حور العيون ، فما يمالك أن يقول :

يقتلن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله إنسانا

ويفضح الفرزدق فسقه في مقاله :

هما دلتاني من ثمانين قامة ...

وهو هو القائل في زين العابدين ، حفيد علي بن أبي طالب :

هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله بجده أنبياء الله قد ختموا

والقصيدة من اسمى المنظوم ، وهي في المدح لا عديل لها ، فمن أوحى بها ؟ ... ابن بنت النبي ، ملك من سلالة ملوك وإن هم ناموا في مطلع نهضتهم عن التاج والصولجان

وعظمة سحبان وائل ، الخطيب البليغ اللسان ، أين تجلت في أبهى جلالتها ؟ ... أليس في بلاط معاوية الأول ؟ ... وبيان عبد الحميد الكاتب أين سما ؟ في بلاط الخليفة الجعدي ، خاتمة الملوك الأمويين !

* * *

وزحزح العهد العباسي لثامه فإذا ابن المقفع في خدمة أحمام الخليفة ، وإذا الخليفة العباسي الثاني يدعوه إليه ويكلفه نقل الكتب الأعجمية الدائمة الصيت إلى لغة الضاد . وهكذا نعمنا بكليلة ودمنة ، أتقى مثال للأدب الوزين !

واتسع المجال في منتدى الخلفاء لكل ناظم وكاتب . فقام أبو دلامة وأبو معاذ الأعمى بشار بن برد ، في بلاط المهدي . واشتد الإقبال على الأدب . ولم يكن بيت المال في بغداد دون بيت المال في دمشق ، فتألفت المدارس الأدبية ، وبدا المنشئون في سطوة وهناءة . فالعباسيون شاءوا أن يبزوا الأمويين في العلم وبث الدعوة . وما خلا الجو للرشيد حتى أصبح أدب الضاد مشعل هدى ؛ وكان قد أضاء في سمائه الخليل بن أحمد ، وأبو نواس ، وأبو العتاهية ، والأصمعي ، وأبو عبيدة ، وسيبويه ، والجاحظ ، والكسائي . وجاء المأمون فإذا أوسع نهضة أدبية في لغة الضاد تتجلى . فما شهدت لغتنا عهداً فواحاً خصباً في الأدب والعلم كعهد المأمون !

وقبض المأمون فقامت دولة أخيه المعتصم . وفي كنف المعتصم لمع أبو تمام . وكان المتوكل فتبغ في رحابه الشاعر البحتري . وانتهى الموكب إلى المتنبي فتلظت مواهبه في حمى الملوك ، ولا سيما في بلاط سيف الدولة الحمداني

وما شذ الأدب في الأندلس عن القاعدة . فعاش في ظلال الملوك وانطفأ بانطفاء الملوك ، مثله في دمشق وبغداد . فما إن تنقضي الدولة حتى يأوي إلى المضجع . ولقد طال هجوعه نحواً